

صفحة من تاريخ الإستشراق في ألمانيا بقلم الدكتور يوهان فيوك

قام الاستاذ الشهير يوهان فيوك J. Füek في سنة 1943 بوضع مؤلف ذي أهمية فائقة عن تاريخ
الاستشراق والمستشرقين في أوروبا من أوائل دراسات اللغة العربية إلى القرن التاسع عشر ، ثم
أتم هذه الرسالة فيما بعد ونشرها في كتاب عنوانه:

Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955

نود أن نورد هنا بابا من هذا الكتاب عن أول من جعل علم اللغة العربية علما ودرسا مستقلا .
وهو (يوهان يعقوب رايسكه) J. Reiske الألماني (1716 إلى 1774) منقولا عن مجلة «فكروفن»

في تلك السنين كتابا في النحو العربي أشار فيه إلى أهمية
اللغة العربية وأدبها ولكن أمه في درس هذه اللغة كان
فتح باب جديد للمبشرين النصارى في بلاد الاسلام . ونجد
في كتابه هذا اخطاء بلا عدد ونستدل منه على أن معرفته
بالعربية كانت ضعيفة غير كافية مع نشره في آخر كتابه
ترجمة لاتينية لسورة الفاتحة .

أما المخطوطات التي كان بوستل قد أتى بها إلى
أوربا فقد باعها إلى مكتبة جامعة هايدلبرج عندما وقع في
ضيق مالي وجرى عليه ما جرى من الحوادث الغربية ،
وأصبحت هذه المخطوطات أساسا مهما بنيت عليه دراسة
اللغات الشرقية في ألمانيا في مهدها . فقام بعض اللاهوتيين
بدراسة تراجم الانجيل العربية التي وجدت في المخطوطات
المذكورة ، وكان يعقوب كريستمان Christmann (1554
إلى 1613) الذي تعلم اللغة العربية من كتاب النحو لبوستل
أول من عرض على الامير يوهان قاسيمير تشكيل كرسي
خاص للدراسات الشرقية وبخاصة العربية في جامعة
هايدلبرج وكان ذلك في عام 1590 غير أن هذا الاقتراح لم
ينفذ قبل سنة 1609 .

كان أول من اعتنى باللغة العربية علماء الكنيسة
المسيحية الذين بذلوا جهدهم في درس لغة المسلمين غير
أن هدفهم لم يكن هدفا علميا بل أنهم أرادوا الرد على
الاسلام على أساس تراجم لاتينية للقرآن و « اهداء »
المسلمين بواسطة تراجم عربية للانجيل والكتب الاخرى ،
أي ان غرضهم كان بعيدا عن تحقيق عادل ودراسة علمية .
ولم يتغير هذا الوضع في بلاد الغرب كلها حتى القرن
السادس عشر تقريبا عندما اشتدت الرغبة لدى أهل
الغرب في ارسال المبشرين إلى البلاد الاسلامية بعد أن
فتح الاتراك مدينة استانبول سنة 1453 . ثم أخذ بعض أهل
العلم يؤمنون الشرق ليحصلوا على مخطوطات عربية من
استانبول ودمشق وغيرها من مدن الشرق ولتعلم اللغة
العربية في هذه المنطقة . وكان أول هؤلاء المستشرقين
ويليلم بوستل W. Postel الفرنسي الاصل الذي أرسله
ملك فرنسا فرانسوا الاول ، سنة 1534 إلى مصر ثم إلى
استانبول حيث تعلم العربية والتركية والعبرانية وقليلًا من
اللغة الحبشية . ولما رجع بوستل إلى وطنه عينه الملك
أستاذًا للغات الشرقية في جامعة باريس سنة 1537 فألف

(1750) الذي يعتبر مثالا حيا لهؤلاء العلماء الذين لم يدرسوا اللغة العربية لقيمتها الادبية أو للتعلم في تاريخ الاسلام أو لدرس تطور الادب عند المسلمين بل لاستعمالها وسيلة لدرس العهد القديم واللغة العبرانية . وعاش في أيام هذا المستشرق الفلمنكي عالم المانى اسمه يوهان يعقوب رايسكه يستحق بأن يدعى أول مستشرق حقيقي في عهد غير ملائم للدراسات العربية ومن المدمش والجدير بالذكر انه قام بهذه الدراسة وأدام عليها على الرغم من المصاعب التي أصابته في أبن حياته .

ولد رايسكه في عائلة دباغ فقير في 25 كانون الاول سنة 1716 في قرية تسوربيج Zörbig في مملكة ساكسونيا ، وحصل على تربيته الثانوية في اليتيم المشهور في مدينة هاله (وكان هذا اليتيم الذي أسس سنة 1695 مدرسة ذات شهرة في ذلك العهد) وبقي فيه من سنة 1728 إلى سنة 1732 ، وأخذ « شوق لا يوصف وغير قابل القمع لتعلم اللغة العربية » لم يدر أشاب ما سببه، وعندما ابتنا بدراسته في جامعة لايبزج عام 1733 اختار مواضيع تحصيله مستندا برأيه وشرع في دراسة اللغة العربية بنشاط كبير وتوفق في درس النحو العربي دون الاخذ بمعونة أي معلم ما مستندا الى موهبته الخاصة لتعلم اللغات فقط . وسعى أن يشتري كل ما وجد ان ذلك في أوروبا من الكتب العربية المطبوعة رغم فقره المدقع وكونه في حاجة الى ضروريات الحياة لان والديه الفقيرين لم يستطيعا ان يعطياه أكثر من 200 تالر في مدة خمس سنوات (وكان التالر يساوي الدينار أو اقل منه) . وفي سنة 1735 بدأ له ان يتجرا على مطالعة « عجائب المقدور » لابن عربشاه ، وهذا كتاب مسجع صعب الاسلوب ، ولعلمه بنفاص الكتاب المنشور على يد جوليوس وأغلاطه سافر في شتاء ذلك العام الى مدينة دريسدن ، وكان معلوما لديه ان أحد مأموري المكتبة الملكية هناك يملك نسخة مصححة مستندة الى نسختي هذا المؤلف المحفوظتين في مكتبة باريس ، فاستنسخها رايسكه بانن صاحبها . وقد اكمل الشاب مطالعة كل ما كان موجودا من الكتب العربية المطبوعة في سنة 1736 - أي لما اتم من عمره عشرين سنة ! - وفي هذه السنة ترجم الى اللاتينية رسالة هرمس المثلث بالحكمة التي كان مخطوطها محفوظا في مكتبة لايبزج ، فقال المستشرق تكبير هـ.ل. فلايشير Fleischer عن هذه الترجمة سنة 1870 ، أكثر من قرن بعد وفياة المؤلف : « انه لم يند يوجد الآن شاب ابن عشرين سنة

مع ان كريستمان ومن تبعه في المانيا في ذلك الزمان جعل من دراسته للعربية وسيلة لنشر النصرانية فسي الشرق فقد قام في فرنسا عالم بمنهاج آخر ، وهو يوسف سكاليجر Scaliger (1540 الى 1609) ، أحد تلامذة بوستل . وكان هنا أول من ألم بعلم عميق عن مختلف مناهج ضبط التواريخ في الشرق والغرب وقام بجمع أخبار التقاويم لدى الملل والنحل كما سبقه في ذلك العالم المتبحر البيروني في « كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية » من نحو ستة قرون مضت ، وقارن سكاليجرين هذه التقاويم حتى انه ألم بخصوصية التاريخ الهجري وكان هذا غير معروف عند أهل الغرب ، ووقف أيضا على التاريخ الخلالى الذي ابدعه الرياضيون في دولة السلطان ملكشاه السلجوقي (المتوفى 1072) . ومن هنا تبدأ الدراسة الحقيقية لتاريخ الاسلام .

وفي هذا العصر ظهرت لأول مرة الحروف العربية في الطبع في أوروبا مع كونها غير حسنة الشكل . وازدادت معرفة العلماء بالطب العربي وارتباطهم بهذا العلم الذي كان مشهورا في الغرب منذ القرون الوسطى على يد التراجم اللاتينية .

أما المملكة التي لعبت دورا كبيرا في تطور الدراسة الشرقية فهي هولاندا ، وكان تومس ارينيوس Erpenius (1584 الى 1624) أول من قام بنشر متن مأخوذ من الادب اعري في أوروبا عندما طبع في سنة 1615 « كتاب الامثال » للميداني ، وألف ايضا كتاب النحو العربي الذي كان يستعمله كل من أراد درس العربية في الغرب نحو قرنين أي الى أن نشر سيلفستر نى ساسى S. de Sacy كتابه المشهور في النحو العربي في عام 1810 . واعتنى ارينيوس أيضا بطبع سورة يوسف . ان ما ابتدا به هذا العالم اتمه خليفته في جامعة لايدن ، يعقوب جوليوس Colius (1956 الى 1667) الذي نشر عددا من الآثار العربية المشهورة ، منها « لامية العجم » للطغرائى و « عجائب المقدور » لابن عريشاه ، وتوج آثاره بتأليف قاموس عربى - لاتينى . زد على هذا انه اشترى في اثناء سياحته في سوريا وتركيا نحو 250 مخطوطة عربية ما زالت محفوظة في مكتبة لايدن الى الآن ، وأضاف اليها فيما بعد وارنر Warner ، أحد تلامذة جوليوس ، ما يقارب ألف مخطوط ذات قيمة . فأصبحت مدينة لايدن مركزا لتحصيل العربية في أوروبا . ومما يدعو للاسف أننا نجد بعد ذلك في الجامعة نفسها أستاذنا آخر أي البرشت شولتير Schultens (1686 الى

الكتبيين ، وهو يوهان ليزاك ، الذي أعطاه بدلا لخدمته غرفة وطعاما فقط ، وكان يحصل القليل من المال باعطاء دروس خصوصية باللغة اليونانية والمكالمة باللاتينية للطلاب الهولانديين . وعندما تابع شولتنس التدريس بعد التعتيل الصيفي أصبح رايسكه تلميذا له . وحصل بمساعدته على الاذن بمطالعة المخطوطات التي طالما اشتاق لرؤيتها . وكانت رغبته الاولى التعمق في آثار المؤرخين وكتب الجغرافيا ، ولكن شولتنس أوصاه بدرس الشعر العربي . فنسخ الشاب سنة 1739 ديوان جرير ، ولامية العرب للشنفرى ، وديوان الطهمان ، وفي السنة التالية الحماسة للبحرئى ، واما معظم أوقاته فصرفها فى مطالعة أشعار الجاهلية الأكثر شهرة ، أي المعلقات ، ودرسها فى مخطوطين « وارنر 292 ووارنر 628 » مع شرح التبريزى وشرح النحاس ، واختار أطولها ، وهى معلقة طرفة ، للتهذيب والتصحیح ، وأتم هذا العمل أو القسم الأكبر منه ، عام 1740 ، ولكن الطباعة لم تتم الا بعد سنتين أي فى عام 1742 ، ويحتوى كتابه هنا على المتن العربى بلا حركات مع ترجمته اللاتينية وحواش له ، وشرح النحاس ، وبعد أن يعلق المؤلف على الترجمة والحواشى وبعض الملاحظات يظهر كيف تطورت افكار الشاعر ويوضح موضوعات القصيدة واحدا بواحد كما يفسر أيضا الاشكال الشعرية وطرز البلاغة بمعونة كثير من الابيات والعبارات الماخوذة عن المعلقات الأخرى وعن ديوان الهنيلية والحماسيتين وأشعار المتنبى وأبى العلاء المعرى وسائر الشعراء ، وتعالج المقدمة أنواع مخطوطات المعلقات وحواشيهما وشروحها والأسماء التي تعرف بها ، ويقدم للقراء محتويات كل واحدة منها ويزيد المعلومات عن مجرى حياة مؤلفيها ، ويبحث فيما بعد حياة طرفة بالتفصيل كما انه يضيف أيضا جدولاً للنسب تبدو منه علاقة القرابة بين طرفة وسائر الشعراء فى جزيرة العرب ويمكننا بواسطة ضبط التواريخ التي اقترحها رايسكه فى مقدمة تأليفه هنا . وكان رايسكه بهذا العمل أول من سلك الطريق الذي يسلك الى الآن فى الغرب عند شرح آثار الشعراء العرب ، ومن المسلم به أن هنا الطريق هو أحسن طريق يهتدى بالشارح الى غايته العلمية .

ومع ذلك فإن النهاج الجديد كان بعيدا جدا عن الطرق التي بحث فيها الأستاذ شولتنس عن أصول اللغات السامية فى غمائم خياله ، ولم يقد رايسكه فى تأليفه بانكار مثل هذه المخيلات غير المعقولة : أن من اقتطع ببراهين رايسكه على أن المعلقات من شعر القرن السادس

يستطيع القيام بترجمة أحسن منها حتى ولو كان حاصلًا على أفضل التعليم ومتلقنا أصح الوسائل « وعبر كذلك عن زغبة واحدة يقول : « ليتني اجتنبت غلطات رايسكه ، ولا أرغب فى فضل آخر » . بعد ذلك كان على رايسكه أن يحصل على مخطوطات عربية فبعت اليه المؤلف الشهير لكتاب Biblia Hebraica وهو يوهان كريستوف فولف فى مدينة هامبورج (من 1683 الى 1739) بنسخة من مقامات الحريرى من مجموعته الخاصة ، ونشر رايسكه المقامة السادسة والعشرين بمتنها العربى وترجمتها الى اللاتينية استنادا الى هذه المخطوطة وان سمي هذا التأليف فيما بعد eine elende Schülerprobe وسريعا ما تحسنت ترجماته وتفوق الاولية . وأقرضه فولف المذكور مخطوطات أخرى لكي يتصرف بها فكان رايسكه ممنونا له لفضله هذا طول عمره . وكان كلما ازداد تعمقا فى الادب العربى ازداد شغفا به ، وأصبحت أمنيته الكبرى أن يكرس حياته لهذا العلم ببذل كل وقته لهذا الهدف . ولم يكن ذلك ممكنا الا بدخوله مكتبة لايدن المشهورة وخزينة المخطوطات المحفوظة بها المسماة « بوقف وارنر » . عزم رايسكه على السفر الى هولاندا رغم المشكلات العظيمة ، فرحل فى شهر مايو سنة 1738 متوجها أولا الى هامبورج حيث قابله المؤلف فولف المذكور بكل لطف وقدمه أيضا لرايماروس Reimarus ، عالم واسع الصيت . ثم تبع رايسكه سفره الى مدينة أمستردام وزار هناك الدكتور دورفيل d'Orville أحد اساتذة اللغات القديمة وكان الاستاذ فولف قد كتب له خطاب توصية ، فود الاستاذ دورفيل أن يتخذ رايسكه معاونا له ، ولكن الشاب الذي كان شغوقا بمطالعة المخطوطات العربية لم يرد قبول الارتباط بوظيفة ما ورد هنا العرض مع انه لو كان قبله لحسنت وضعيته المالية تحسنا ملحوظا ، ولكنه رفض القبول حتما كيلا يضيع الوقت اللازم لمطالعة الكتب الشرقية . ومع ذلك فقد قدم الاستاذ دورفيل له خدمات جميلة طوال اقامته فى هولاندا وكان يوكله بقراءة التصحيحات لبعض كتبه وما يشبه ذلك من الاعمال الادبية والعلمية ومن التراجم كما كان يقوم بتسديد بعض مصاريفه فى أواخر اقامته بلايدن .

وصل رايسكه مدينة لايدن فى 6 حزيران 1738 وقام فى الحال بزيارة المستشرق شولتنس فعرف منه انه لا توجد هناك منح دراسية للطلبة الاجانب وان عطلة الصيف ستبدأ عن قريب . وقد زاد من غمه انه لم يسمح له بدخول المكتبة لعجزه عن ايفاء الرسوم . فصار مصححا عند أحد

معلومات طبية من المؤلفات العربية مع أن اللاهوتيين فى لايدن أقاموا مشكلات جديدة مدعين أنه كان ماديا لما عرضه من الابحاث العلمية فى امتحانه . سافر راييسكه فى 10 حزيران 1746 من هولندا ووصل مدينة لايبزج فى أوائل شهر تموز . ولما لم يرغب فى اجراء الطب فعلا وجب عليه أن يكسب يوميته بتصحيحاته الكتب وباعطاء دروس خصوصية ويتراجم وما شابه ذلك من الاشغال غير المجدية . ولكن المهم انه بقى لديه وقت لتابعة العربية ، وألف فى شهر آب 1747 كتابا لاتينيا عنوانه :

Prodidagmata ad Hagji Chalifae librum memoriam rerum a Muhammedanis gestarum exhibentia introductionem generalem in historiam sic dictam orientalem

وهو رسالة فى التاريخ الاسلامى ، نشرها تلميذ له ، يدعى ي.ب. كولر Köhler سنة 1766 فى كتابه عن أبى الفداء فى شكل ملحق (ص 215 - 240) وفيه يرفض راييسكه فى مستهل مقدمته استعمال التعبير (شرقى) لانه غير مضبوط ، ويستعمل بدلا منه تعبير « محمسى » او « مسلم » لان هنا اتعلم يبحث عن تاريخ المسلمين لا فى الشرق فحسب بل أيضا فى افريقيا وأوربا ، ويريد المؤلف كما قال ، معالجة مادته فى ثلاثة أبواب : أولها البحث عن الملل والسلالات ، ثانيها عن البلدان التى وقعت فيها هذه الحوادث التاريخية ، وثالثها عن المصادر التى تخبرنا عن هذه الوقائع . ويلي هذا التمهيد الصريح ببيان واضح حسن النظام .

الباب الاول (ص 218 - 221) يمدد العناصر الخمسة التى لعبت دورا فى تاريخ الاسلام ، وهم العرب، والاييرانيون ، والأتراك والتركمة ، والمنول والتتر ، والبربر ويبين موجزا السلالات التى أخرجتها كل أمة ، ويشير فى ملحق للباب الاول مرة اخرى الى أماكن هؤلاء السلالات وكيف انتشرت من الاندلس الى الشرق الاوسط . وفى الباب الثانى يذكر المؤلف استنادا الى آثار أبى الفداء ، الممالك الاسلامية ومدنها المهمة ويبحث أيضا بواسطة مقدمة العالم العربى نفسه عن البحور والانهار والجيال وينجز الباب مشيرا الى ما يجب ان يلم به من المعلومات على مدرسى الجغرافيا التاريخية . ويحتوى الباب الثالث - وموضوعه المناهج التاريخية - على فهرس الكتب النقدية مبتدئا بتأليف ديربلو d'Herbelot المسمى بـ Biblio- thèque Orientale

الميلادى فهو يعرف بأن لا ثقة بما زعمه شولتنس عن اشعر العربى القديم العهد . أما شولتنس فلم يعرف كيف يفهم كتابا فى العربية موضوعه لا علاقة له بتفسير التوراة ولا بنظريات اللاهوتيين . ووقعت لذلك ونسبب آخر مناقشة شديدة بين هذين الرجلين المختلفى الاخلاق غاية الاختلاف . أما راييسكه فلم يبال بما قاله الكثيرون وثابر على سلك الطريق انضى عرفه صحيحا وطيدا ، ولم يكن له علاقة ما بعلم اللاهوت ، ولم يكثرث بانسؤال هل لتعلم التوراة ودرس اللغة العبرية أمى فائدة من جراء درس العربية أو لا . ولم يكن باستطاعة الاستاذ شولتنس انناع تلميذه هنا بأن يتعلم اللغات السامية الاخرى غير العربية لان راييسكه كان قد انرك ان هنا لن يجلب انمارا مرضية لدرس علم ائله العربية وأدبها ، وعرف ان درس مشتقات الكلمات تلاعب على اساس جنور فرضية وان التسمى لمعرفة المعنى الابتدائى للكلمات المشتركة فى اللغات السامية ما هو الا خرائط باطلة . حتى انه اعلن « ان أراد المرء ان يساعد على رواج دراسة العربية فعليه ان لا يدرسها كلاهوتي » . وثار ضميره كفقيه فى اللغة على طريقة شولتنس الهوائية فى معالجة النصوص العربية وكيف كان يتفانى الصعوبات اما باهمال الكلمات التى لم يفهم معناها دون ذكر ذلك او بتغييرها تعسفا . لقد كان على علم بأنه لا يكفى لاصدار نشرة صحيحة كون المخطوط قائما على اساس سليمة فحسب بل القدرة على النقد ومعرفة اخطاء النقل وتكهن المعنى الذى يقصده المؤلف من القرينة واصلاح مواضع فساد المخطوطة بتصحيحات تناسب اصطلاحات المؤلف .

كلفته ادارة المكتبة فى لايدن بتبويب وتنسيق المخطوطات العربية ، ورحب راييسكه بهذه الفرصة التى مكنته من تنقيحها كلها فنسخ ما علق بها من الآثار ، مثلا المعارف لابن قتيبة ، والتاريخ والجغرافيا لابي الفداء ، وتاريخ حمزة الاصفهانى ومقتطفات من طبقات الاطباء لابن أبى اصيبعة وغيره . ولكنه لم يمكنه الحصول على درجة الدكتوراة فى كلية الآداب فى جامعة لايدن لان شولتنس أبى ذلك عليه اذ انه كان يريد ان يعين ابنه خليفة له على كرسي الدراسات الشرقية ، وود لو راييسكه ترك دراسة العربية تماما . لذلك افهم العالم الالمانى ان وضعيته بأئسة بلا أمل واقنعه بان يدرس قليلا من الطب ، فدرس راييسكه الطب لمدة بضعة أشهر وحصل على درجة دكتور طب فى شهر ماين سنة 1746 استنادا الى ما كان قد جمع من

(المكتبة الشرقية ، وهي قاموس شامل على كل ما كان معروفاً في أوائل القرن الثامن عشر عن المواضيع الشرقية) ، ويقدر راييسكه هذا التأليف غاية التقدير ، ويذكر فيما بعد المطبوعات المتعددة التي يمكن ذكرها بهذا الخصوص وهي :
E. Pocock :

وتأليف جرجيس الكين (المتوفى 1273) ، وأبي العباس أحمد الفرغاني المنجم المشهور في أوربا منذ القرون الوسطى ، والاقسام المطبوعة من تاريخ أبي الفداء (رئيس في رايه ابن عربيشاه بمؤرخ حقيقي) ، وما يسمى الجغرافي النوبي Geographus nubiensis ثم يشير بالاجاز التي كتب الرحلة وما ألف في أوربا من الكتب حول التاريخ الاسلامي (مثلا قانتير ، Pétis de la Croix وغيرهما) وبعد ذلك يبحث عن المصادر المخطوطة ، أي عن تأليف أبي الفداء بأجمعها ، عن ابن الشحنة ، حمزة الاصفهاني ، كتاب المعارف لابن قتيبة ، كتاب الاشتقاق لابن دريد ، كتاب الامثال للميداني الذي قدره غاية التقدير . ثم يضيف بعض ملاحظاته في فهرست المخطوطات الشرقية في لايدن التي اعتنى باحضاره هايمان Heymann ، ويتم مقالته مشيراً الى مجموعات المخطوطات الموجودة في اوكسفورد ، باريس وفلورانس التي كانت أقل أهمية من مجموعة مكتبة لايدن . بعد أن عالج راييسكه موضوعه في هذه الابواب الثلاثة ختم كتابه - على عادة عصره - بمدح يستحق المطالعة حتى في أيامنا هذه ، يمدح فيه التاريخ الاسلامي ويوصي مواطنيه بمتعدد الاسباب على درس هذا التاريخ الذي كان يهمل كثيراً في أوربا . ومع أن هذه التصريحات كانت مخاطبة لطبقة القراء غير الاختصاصيين في هذا الحيز والذين لا علاقة خاصة لهم بتفرعات هذا العلم فقد أراد المؤلف استرعاء اهتمامهم لهذا الموضوع الجديد ، وبالرغم من ذلك فإن هذا المدح دليل صريح لادراك تصورات راييسكه ونظرياته العامة وأن نقصه أحياناً ارتباط منطقي ، تدل هذه السطور على أن العالم رأى تاريخ الشرق كقسم لتاريخ العالم العام ، وأنه ظن أن درس هذا التاريخ كان واجباً على الانسان لاجل التواتر التاريخي ، كما اعتبر أيضاً درس تاريخ اليونان والرومانيين القديمين واجباً على كل رجل مثقف وقد أجمع العلماء في العالم على ذلك أجماعاً كاملاً ولا ينكر أحد أهمية التاريخ القديم . لقد تحقق لرايسكه من وصف ايران في اثناء القرون الوسطى بقلم أبي الفداء انه كانت هناك عين الامم والاقاليم ، وعين العادات وأنواع الحكومة التي تحققت له من مطالعته تاريخ هرودوت اليوناني ووصفه لايران

انقديمه . لذلك يطلب العالم من المؤرخ ان يعقب ما حدث في منى العصور لتلك الممالك والولايات في الشرق وفي افريقيا التي فتحها اليونان أو كانت من توابع الامبراطورية الرومانية ، ويراعى أيضاً العلاقات المتبادلة والحوادث المشتركة بين الغرب والعالم الاسلامي التي كانت موجودة منذ أيام شارلمان الامبراطور الالماني في أيام هارون الرشيد ومنذ تأسيس دولة الروم ، من عهد النورمان في صيقيليا والصليبيين التي فتوحات الاتراك العثمانية ، ويشير الى الفائدة التي سيحصلها مؤرخ الغرب من درس الشرقيات وكثيراً ما أكد لقراءه بأن التاريخ الشرقي لا يقصر عن تاريخ الغرب معنى أو قيمة أو محتويات ، وصرح بأن التخصص بالتاريخ كثيراً ما يرى الكفر والظلم ظافرين بلا عقاب يعيشان في سعادة فانية بينما يرى أيضاً التقوى وبساطة الخلق مهملين على سطح الارض أو مداسين في تراب ، فيبدو للمناظر المتحير كأن كل شيء دائر في دور عظيم مهول تحركه قوة عمياء مجهولة ، ومع ذلك لا يشك بأن الثمر الاحلى والمحصول الاهم الذي انتجه درس التاريخ هو ادراك القوى التي تسير الافعال البشرية كما كشف عنها تاريخ بنى آدم . ومن أراد أن يتعلم من درس التاريخ مناهج السياسة ، ومن رغب في تبصر الحكمة الالهية أو طرق القضاء الاعمى ، أو من ود ان يتفحص الاخلاق والشيم البشرية فانه يجد لذلك في تاريخ الشرق امثلة بارزة عين البروز كما يجدها في تاريخ أوربا . ولا يتردد راييسكه بأن يعطف على أعمال طفول السلاجقي ، جنكزخان ، تيمور ومحمد الفاتح أهمية وقيمة اكبر من قيمة فتوحات اسكندر الاكبر ، وبلغ اعجاب بملوك ايران القديمة حداً انه شبه انتصار اليونان على الايرانيين بتصرف برغش يزعم الاقيال ، ونظر الى تاريخ الاسلام بعين طويلة النظر ، وإن اعتبر ظهور محمد والفتوحات الدينية من الحوادث التاريخية التي لا يفهم معناها العقل الانساني بل يرى فيها حكم القدرة الالهية ، ويرى في قبض بنى أمية عنان الدولة وفي الآلام التي قاساها آل علي بن أبي طالب قضاء الهيا . وتمسك ، « تشيع حسن » كما وجد هنا التشيع في مصادره التاريخية غنيز القديمة العهد : أي انه اعتبر علياً الخليفة الحقيقي للرسول وقد منعه احيال الشورى ودساتيره من حقه الموروث لمدة 24 سنة ، ويرى فيه احسن ملك ظهر في العالم الاسلامي ، ملكاً شجاعاً ، عادلاً محاه القضاء والقدر ، وأباده بغض عائشة الطموح . ويرى راييسكه في مجادلة علي ومعاوية مثلاً امثل لظفر الحيلة على القوة ، لفوز البراءة على الامانة ،

سليمان مع شرح له مستعملا فيه منهاج البحث عن مشتقات الكلمات بلا حرج . وقام راييسكه بمراجعة هذين الكتابين في Nova Acta Eruditorum وهي مجلة علمية من نشر السيد منكن . وأتزمه ضميره في هذا النقد الأدبي أن يصرح عن الحقيقة بشأن الكتابين . ومع أنه حافظ على الاحترام اللائق تجاه شولتنس فإنه أدرك من الوقع الذي سببه فقط أنه كان من الأفضل لو كان قد قام أحد غيره بهذه المهمة . ولكن شولتنس الذي كان معتادا على المشاجرات الأدبية والذي لم يجترئ، أحد حتى ذلك الوقت على الشك في كونه معلم عصره في العربية قام بالدفاع عن نفسه ببعض تحريرين الى « منكن » طالبا منه أن ينشرهما ويوزعهما الى جميع الجهات . وفيها خرج بالنزاع الى المضمار الشخصي واقترب على راييسكه غاية الاقتراء بحيث لم يبق ذلك دون نتيجة . وكان لهذين الكتوين تأثير كبير في ألمانيا - وكان شولتنس قد أرسلهما الى جميع أساتذة الكلية بلايرج - فلم يستطيعوا تقدير ما عرضه راييسكه من الأسباب الواقعية ولم يتمكن أحدهم من المقارنة بين الرأيين مقارنة علمية كما لو كانوا اختصاصيين في الموضوع . ولم يمد أحد يد المساعدة لرايسكه وبمضت عليه سنة بعد سنة دون أن يعينه معهد ما في ألمانيا أو في خارجها أساتذا ولم يفده اثباته في نشرياته أنه كان متبحرا في اللغة اليونانية أيضا لان خصيمه في هذا المضمار كان الأستاذ أرنستي Ernesti ، استاذ اللغات القديمة واللاهوت معا ، - في سنة 1753 حاول الأستاذ بوبوويتش Popowitsch في جامعة فيينا ان يجد منصبا لرايسكه لدى السفير النمساوي فون شواختايم الذي سافر الى استانبول سفيرا عند الباب العالي ، وفشل هذا الترتيب لان راييسكه أبى ان يتكثك . واستمرت أحواله المالية تملى عليه الضيق والحرمان ، وخاصة عندما توقف الملك الساكسوني عن أداء معاشه في عام 1755 .

ولما بُس راييسكه من حاله توجه في أواخر سنة 1756 الى الأستاذ ي.د. ميخائليس Michaelis (1717 الى 1791) في مدينة جوتنكن الذي كان زميله في المدرسة . ولم يشعر العالم الساذج الذي لم يكن له دراية لا بالناس وأخلاقهم ولا بالدنيا وبنياها أنه وضع حياته في يدي أناني مدبر للمكائد . روى له راييسكه ما جرى له من تصرفات الدهر ومن الضيق وأفهمه أنه لو عينه استاذنا في معهد جوتنكن لاجبرت الحكومة الساكسونية على معونته حتى ولو كان هذا التعيين المفروض ظاهرا وغير حقيقي ، وأضاف الى هذه الكلمات - وكان مخلصا غاية الاخلاص

حتى انه لا يكتفى بذلك المديح بل يقارن بين علي بن أبي طالب ومارك أورل ، الاميراطور الروماني الذي يسمى « الفيلسوف على السرير » . وتدعوه أحيانا هذه الرغبة في التشبيه الى أن يكشف كثيرا من المشابهات بين التطور التاريخي في ممالك الاسلام وفي أوربا لكي يثبت لقرائه انه قد وقع على مسرح الشرق من المشاهد السامية المهذبة مثلما جرى في الغرب .

وفي ابان هذه السنوات كتب راييسكه كتابا آخر

عنوانه :

de Principibus Muhammedanis literarum laude claris

فانعم عليه ملك ساكسونيا في مدينة دريسدن بلقب « الاستاذ » وخصص له معاشا سنويا مقداره 100 تالر ، بيد ان الحكومة لم توف هذا المعاش الا بين الحين والآخر حتى انقطع تماما بعد سنة 1755 . وسرعان ما تدهورت وضعيته الاقتصادية ويقرض للفاقة والحرمان كما كانت حالته من قبل ، ولم يرق أحدا ان اتهمه اللاهوتيون بالزندقة لانه لم يتراجع عن اصراره ان لا يسمى محمدا « نبيا كانبا » و « خداعا » وان لا يصف دينه خرافة مضحكة ولانه لم يقسم تاريخ العالم الى قسمين ، أحدهما التاريخ المقدس ، والآخر التاريخ الدنيوي ، بل كان يحصل لتاريخ الاسلام منصبا في وسط التاريخ العام .

ند على ذلك أن راييسكه لم يتردد باظهار رأه بكل صراحة غير مبال بالنتيجة ، وحدث ذلك خصومات شديدة ، فعلا قام الأستاذ شولتنس الفلمنكي في سنة 1748 بنشر طبعة جديدة لكتاب النحو الذي ألفه اربنيوس (سنة 1513) وما كان ذلك الا تكرار طبع المؤلف الاصل كما كان اعتنى به جوليوس ، خليفة اربنيوس ، دون ان يغير فيه شولتنس كلمة واحدة بل أبقى على ما فيه من أساطين لقمان ومن الامثال الا انه أضاف الى هذه المادة الموروثة أشعارا منتخبة من الحماسة ولم يخل هذا المقتطف من الغلطات ، ثم ألف شولتنس مقدمة طويلة لهذا الكتاب رد فيها نظريات بعض شارحي التوراة من اليهود ومن يقول قولهم من النصراني في مسألة قدسية اللغة العبرانية . واعترض راييسكه على المقدمة قائلا بأنه لا يليق نكر هذه المسائل المتعلقة بتفسير التوراة في كتاب يبحث عن النحو العربي ، ولا جدال في أن مطالعة اشعار الحماسة ليست بمناسبة للمبتدئين بدرس العربية .

وفي العام نفسه نشر شولتنس ترجمة لكتاب امثال

على تهنئة صديق له قدمها له بمناسبة تعيينه فى وظيفته الجديدة ، وكان صديقه قد نكز فى شعر لاتينى عصا يعقوب والنص ولجان المذكور فى الادب اليونانى ، فشكره رايسكه برسالة صغيرة بحث فيها عن سبعة أمثال عربية تعالج العصاة وقد أخذها عن كتاب الأمثال للميدانى الذى كان مفرما به جدا . أما فى السنة التالية فقد عالج فى برنامج المدرسة اكنم بن صيفى أحد « حكماء » الجاهلية استنادا الى كتاب الميدانى المذكور ولم يفهم أحد من الناس مقصد هذا المقال واقتصروا عن أدراك أهميته العلمية حتى ان رايسكه كف عن تدوين برنامج آخر فى المستقبل .

وكان المتر العبرى الاخير الذى قدمه للعالم منتخبات من ديوان المتنبي كمثل للشعر العبرى ، ونشر نحو اثنى عشر بيتا عشقيا ومرثيتين فى سنة 1765 ، وأهدى هذه الباقية الشعرية الغرامية لزوجته التى زفت بعد انتظار طويل فى سنة 1864 ، وحبا لها اجتنب فى شرح هذه الغزليات الايضاحات العلمية واكتفى بالتعريف بكلمات الشاعر وايضاح عالم شعوره للقارىء الغربى الذى كثيرا ما وقف مكتوف اليدين تجاه بعض التعابير الشرقية ، وحاول تقدير قيمة اشعار المتنبي من وجهة نظر علم الجمال

وتحقق مرامه الذى عبر عنه فى اهداء هذا الكتاب وهو :
ليت شعرى أن يبقى اسم زوجى مقرونا باسمى ، معروفا
عند الناس ؛ لان ما دام اسم رايسكه يذكر سينكر أيضا
اسم رفيقه التى رافقته بوفاء تام وشجاعة مثيلة . لما توفى
رايسكه فى 14 آب 1774 على اثر مرضه بأسل - ولم يكن
قد اتم العام الثامن والخمسين من عمره - اهتمت هي
بتدريته القيمة حتى لا تقع فى يدي خصمه ارنستى ،
«استودعتها لسنيك Lessing المؤلف الالمانى الشهير الذى
كان من القليلين الذين قدروا قيمة رايسكه أثناء حياته ،
وحفظ لسنيك هذه التركة الى أن اشترها حاجب الملك
الدانماركى السيد فون سوم، ووصلت المكتبة فى كوبنهاجن
بعد وفاة هذا الرجل الشريف .

نشرت زوجة رايسكه تاريخ حياة زوجها الراحل كما
دونه نفسه قبل وفاته ، وهذا كتاب يمزق القلب . ولم
تخف من مجادلة اولئك الذين ظهرت سفالتهم وحقارتهم فى
هذا التأليف ونشرت أيضا سنة 1779 « نظريات فى كتاب
أيوب » و « أمثال سليمان » التى دونها رايسكه سنة 1749 ،
مضيفة انيها متن خطابه الافتتاحي الذى ألقاه فى 31 آب
1748 فى كلية لايبزج ، وسادها شعور بالرضى عندما رأت
أن العالم المتوفى حصل على التقدير الذى أنكروه عليه فى
حياته . : نشر جرونر Gruner فى 1776 للمرة الثانية

مستقيما - ان ضيقه وفقره قد منعاه من أن يخدم ركاب
الادب العربى أكثر مما خدمه حتى الآن ، ولو تحسنت
أحواله فانه سياخذ فى طبع كتب عربية ويعتنى خاصة
بطبع قاموس صغير للعربية ، وأن لم يساعده الله بالقرب
لعالج فيصبح لا فائدة منه لادب العربى . ورغم انه كان
لميخائليس تأثير واسع ونفوذ كبير بين أهل العلم فى ألمانيا
فانه لم يرغب فى التوسط لأجل عالم فاقه بكثير فى اتقان
اللغة العربية ... وكان وقوفه هو على العربية ناقصا لا
يعتد به ، وظن مثلا ان الاعراب كان من مخترعات النحويين
العرب ولعلمهم ادخلوه متبعين المثل الاوربى ، وكان يعترف
نفسه بأنه يجهل تطبيق العروض ومع ذلك تجرأ ان يترجم
ويشرح المقتطف من الحماسة الذى نشره شولتنس ، وكان
عظيم الافتخار بطريق تعليمه للغة العربية ومنهاج
تدريسه . ولما كان عليه من الاعتداد بالنفس بحب الظهور
والاستبداد لم يرد أن يشتغل أحد سواه فى هذا المضمار .
ولذلك تظاهر بالغيظ لما جاءه طلب رايسكه ، حتى انه حول
مكتوبه الذى لا يشك فى ماهيته الخاصة الشخصية الى
وزير المعارف فى مملكته مشيرا اليه بالرد ، ثم قدم لرايسكه
الرد الوزارى ضمن خطاب رسمى صارم .

وأطاح ذلك المكتوب بأمال رايسكه كلها ، فأدرك انه
ان يعين أستاذا فى معهد ما بعد ذلك ، فأخذ فى السعي
الى وظيفة فى مدرسة ، فأصبح عميد مدرسة نيكولاى
فى لايبزج بيد أن صديقا مرأيا أراد منع هذا التعيين
بندائسه وكاد أن يوقف بذلك ، ولكن رايسكه كان قد وجه
اهتمام الوزير كونت واكريارت الساكسونى الى شخصه
عندما عرف السلك العربى فى مخزن متحف مدينة دريسدن
سنة 1756 ، وكفت شفاعة هذا الوزير لتبديد كل ما اظهر
أهل الكنيسة من الشكوك عندما اختير رايسكه عميدا
للمدرسة .

وبهذا وجد رايسكه بعد سنوات الضيق والفاقة
الطويلة ملجأ آمينا ، فاستمر فى العمل فى ميدان الادب
العربى اليونانى فى أوقات فراغه من المدرسة . ولكنه
لم يجد ناشرا لهذه المؤلفات فكان عليه أن يقوم بمصارف
الطبع بنفسه . وكان قد نشر فى عام 1754 المجلد الاول من
ترجمته اللاتينية لتاريخ أبى الفداء ولكنه لم يتمكن من بيع
أكثر من 30 نسخة منها ، ولذلك أجبر على الكف عن
الطبع . ومن ذلك الحين اقتصر على النشرىات الصغيرة ،
وفى عام 1755 اعتدى بنشر رسالة ذات أهمية كبرى لما
تحتوى عليه من تلميحات وإشارات تاريخية أرسلها ابن
زيدون الى ابن عبدوس . وهناك رسالة صغيرة ألفها ردا

رايسكه ، وأما ي.ج. ايشهورن Eichhorn ، وهو أيضا من المستشرقين ، فنشر سنة 1781 المكاتيب التي بعث بها رايسكه عام 1757 بخصوص مسألة السكك العربية الى مدير الخزينة في متحف مدينة دريسدن .

وقد رفع رايسكه من شأن علم اللغة العربية وأدبها وجعله علما مستقلا . ولم ينتبه أحد من معاصريه الى استقلال هذا العلم وعدم ارتباطه بغيره من العلوم اللغوية واللاهوتية مثلما أدرك ذلك رايسكه ، ولم يتوجه أحد بهذه التحفظات ضد لغة المقدسة philologia sacra الذي كان مسيطرا على عقول العلماء في ذلك العصر ، وكان مقصد هنا النوع من علم اللغة ان صاحبه لم يهتم بالعربية الا من حيث اسداؤها له فوائد جمعة في تفسير العهد القديم ، وكان يكتفي بالبحث عن أصول كلمات عربية في قاموس اعرابي لجولديس ويقابلها بكلمات عبرانية مختارا له من المعاني المختلفة لكل كلمة المعنى الذي يوافق اغراضه . ورغم ان احدى مميزات عصره كان نوع العلم المدعو بـ Polyhistorismus أي ان العالم تخيل انه بإمكانه لا بل من واجبه تحصيل العلوم كلها والوقوف على التطور التاريخي بأجمعه فقد عرف رايسكه ان للطبيعة الانسانية وللعقل الانساني حداً نهائياً ، لذلك كف مرة عن تحصيل آثار المؤرخ الروماني سيسيرو « لاجل لا نهائية الاعمال لنقص في الوسائط وليل عظيم لليونانيين وقد كرس وقته للعربية فقط فرفض اضاءة وقته وقوته في تحصيل اللغات المتجانسة . وكان غرض رايسكه اثبات الوحدة الباطنية الروحية لعليه اللغة اللغوية والتاريخية والادبية ، ولم يهتم بالعلاقة الظاهرة بين اللغات السامية . مما لا شك فيه انه كفتيه في اللغة رأى أصل العلم وأساسه في درس عميق للغة نفسها وكان معلوما عنده ان لا يهدى الى وقوف حقيقي على اللغة العربية الا طول الأناة والصبر في مطالعة آثار المؤلفين العرب سنة بعد سنة بلا انقطاع وتحقق له بان مؤلفات العرب المسلمين أفضل من كل ناحية من مؤلفات العرب النصراني بكثير . ولم يكن يخفى على فراسته ان طبقات التوراة والانجيل العربية

ترجمها اما نصارى شرقيون ممن لم يكن لهم علم باليونانية أو العبرانية أو العربية ، أو انها كانت تراجم عجمية على أيدي اليسوعيين الذين لم يعرفوا الا الفلجانا (أي الترجمة اللاتينية للتوراة والانجيل من القرن الخامس م) . ولذلك اجتهد رايسكه في فتح طريق الى خزائن آداب العرب المسلمين وتوفيق في ذلك وأصبح هاديا للآخرين . ولكن درس اللغة لديه ليس غرضا بنفسه بل رأى فيه أساسا للكشف عن التاريخ . ونظرته هذه أدت به الى ادراك أهمية الدور التي لعبه الاسلام في تاريخ الشرق . فانه لم ينظر الى المتن العربية نظرة اللغوي انصرف السني لا يكتفي الا لفهم معاني الكلمات كما قصدها المؤلف نفسه بل نظر اليها نظرة المؤرخ الذي جعل لتاريخ الاسلام مقامه من تاريخ العالم العام وكان يشرح هذه التنوعات مثلما يشرح المشاهد في دار التمثيل عند تأمله في الوقائع الجارية على المسرح اذ يقوم بالفحص عن بواعث الاشخاص الممثلين وعن مراد الشاعر . ورغم ان رايسكه لم يتوفق بتأليف « تاريخ الاسلام » كما أراده فان هذا العالم البعيد النظر وضع أساسا للعلوم الاسلامية العصرية التي تبنى كعلم تاريخي على أساس علم اللغة العربية . أما معاصروه فلم يستطيعوا فهم أفكاره الجسورة ولا تأملاته الجليلية فصار « شهيد الادب العربي » كما سمي نفسه وأصبح تاريخ حياته تاريخ الآلام والظلم كما تشهد به مذكراته المؤثرة . وكما ان للجرأة التي سار بها دون اكتشافات على الطريق الذي اعتبره مرة صحيحا أثرا ساميا فانه من المخجل انه لم يكتشف أحد من أولى الامر في جامعات أوروبا أهمية هذا الرجل العبقري العظيم ، هذا الرجل الفذ الذي كان من أعظم علماء الآداب العربية ، ومن المخجل كذلك ان هذه الآداب التي أراد تشييد بيت لها لم تحصل في ألمانيا القبول الذي استحقته . ولكنه من الطريف ان نذكر انه أسس في القرن التالي في لايزج أي في عين المدينة التي قاسى فيها ما قاسى معهد لدراسة اللغة العربية يفتخر بان يعتبر رايسكه من أجداده الروحانيين .